الإصلاح الاجتماعى

من عادتى - إذا ما استبهمَ علىَّ نَفاذُ الرأى - أن أعدِل بأفكارى إلى الليل ، فهو أحصنُ لها وأجمع . فإذا كان الليلُ ، وهدأتِ النائرةُ ، وأَوَى الناسُ إلى مضاجِعهم ، واستكنَّت عقاربُ الحياةِ فى أجحارِها ، تفلَّتُّ من مكانى إلى غرفتى أُسدِلُ ستائرها وأغلِّقُ أبوابها ونوافذها ، وأَصنعُ لنفسى ليلًا مع الليل ، وسكونًا مع السكون ، ثم أقعد متحفِّزًا متجمعًا خاشِعًا أملأ عينى من ظلام أسود ، ثم أدعُ أفكارى وعواطفى وأحلامى تتعارف بينها ساعة من زمان ، حتى إذا ماجت النفس موجها بين المد والجزر ، ثم قرَّت وسكنت ، وعاد تيارها المتدفق رهوًا ساجيًا كسعادة الطفولة ، دلفت إلى مكتبى أستعين الله على البلاء .

وأمسِ ، حين أيقظنى من غفوتى داعى « الرسالة » جمعت إلىَّ ما عزمت على قراءته من الصحف والمجلات والكتب - التى هى مادة هذا الباب - وطفقت أقرأ وأقرأ ، ولا أكتم أنى كنت أقرأ فى هذا اليوم - على خلافِ عادتى فى أكثر هذه الأيام - قراءة المتتبع اليقظ الناقد المتلقِّف لأضع يدى على أغزر الأصول مادة وأعظمها خطرًا وأشدها بِنية ... وأدسمها شحما ، فإنّ حق القراء علينا أن نتخذ لهم صنيعًا ومائدة تكون أشهى وأمرأ وأقرب متناولًا وأردَّ على شهواتهم فائدة . فلما فرغت من إعداد ما أعددت لهم وأويت إلى ليلى المختلق المزيف ، جعلت أستعيد فى نفسى ماقرأت ، وأين وقفت منه ، وما تنبهت له مما تعودت أن أستشفَّه من وراء الألفاظ المعبرة ، ومن تحت السياق المهدِف إلى غرضه - مما هو بأخلاق الكُتاب وعاداتهم ونوازعهم وخفايا نفوسهم ألصق منه بأغراض الكاتب فيما كتب . فما كدت أقدح الظلام بعينى وأفكر فى هذا الأمر وأستدرجه إلى نفسى حتى رأيتنى أكاد أنفر من مكانى لما عرانى من سوء الرأى وقسوة الظن ، فإن طول تغلغلى فى معانى الكُتاب والشعراء ، أو فى معانى أنفسهم ، يدلنى على أن أكثر من يكتب إنما يدفع بعض الكلام إلى قلمه ليعبر عنه ، غير محتفل بما يقول ، فكذلك يخرج الكلام متخاذلًا مفككا كأنه ناقةٌ من وباء مرض ، ويخيل

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٠) ، ١٩٤٠ ، ص : ٦٢ - ٦٤

إلىّ أن أكثر كتابنا إنما يتناولون المعانى والأغراض من عَيْبةٍ [١] جامعة غير متخيَّرة ولا منتقاة ولا مصنفة ، وأنهم إنما يعرض لهم اشتهاء القول فيقولون للشهوة المستبدة لا للرأى الحاكم ، وأنهم إنما يكتبون ليبقوا كُتابًا فى عقول الناس وعيونهم من طول ما تعرض عليهم المقالات متوجة بالأسماء مذيلة بها ، وأن الكلام عندهم هو أهون عليهم من ضغطة النائم المتلفف زرَّ الكهرباء فإذا هو نور مستفيض . لابد للعرب والعربية أن يبرأ هؤلاء من أمراضهم ثم يقولون ، وأن يعتدُّوا بجمهرة القراء اعتداد من لا غنى له عنهم ولا فقر بهم إليه ، فبذلك أيضًا يصلح ما فسد من القراء الذين يقرأون الأسماء دون معانى هذه الأسماء . ويومئذ لا يشكو الكُتاب من بوار أسواقهم ، لأنهم يعرضون للناس الحَسَن الذى ينشئ فى القلوب الإحساس بالحُسن والرغبة فى اختيار الأحسن ، ويتشوق الناس الجميل لأنه جميل يسمو بالروح فى سُبُحات المثل الأعلى من الجمال الروحانى ... ثم لا يجيزون إلا الجميل . وكذلك يترافد الكاتب والقارئ ويمدُّ أحدهما الآخر بأسباب حياته وخلوده بين خوافق الأدب السامى الرفيع . هذا هو بعض الرأى أدعو إليه كتابنا ، والأدب على شفا جرف هار إلى البوار والبلى والفساد .

* * *

والآن ، وقد تحدَّثت النفس ببعض كلامها ، أعودُ إلى « أدب الأسبوع » ويخيل إلى أن « وزارة الشؤون الاجتماعية » هذه التى استحدثت بعد أن لم تكن ، قد كان من فضل اسمها أن أيقظ أكثر كتَّابنا إلى حقيقة ملموسة كانوا يَغُضُّون دونها أبصارهم لما تلبس صاحبها من لباس الخزى والعار : وهى بقاؤنا بين الأمم أمة لا قوام لها من نفسها وأصلها وتاريخها ، وأن مركز مصر الاجتماعى والسياسى والشرقى أيضًا قد سما فى ظن الناس ولكنه فى حقيقته أقل مما يُحمل عليه من الزينة والتألق والزخرف المستجلب بالإيحاء وإرادة الاستغلال . فقد كتب الدكتور هيكل فى « السياسة الأسبوعية » عدد (١٥٢) كلمة فى « نهضة الإصلاح فى مصر » استقصى بها تاريخها وقواعدها وأغراضها من عهد الثورة الفرنسية إلى هذا الوقت . وكذلك كتب الدكتور « طه حسين » فى « الثقافة » عدد (٥٢) يقترح

(١) العَيْبَة : وعاء من أَدَم يكون فيه المتاع .

إنشاء « مدرسة المروءة » . وجاء « الزيات » فى ختام فاتحة « الرسالة » لعامها الثامن يشكو إلى الله : « إن كبراءنا عطلوا فى أنفسهم حاسة الفن فَلَمْ يعودوا يدركون معنى الجميل ، وإن أدباءنا قتلوا فى قلوبهم عاطفة الأدب فليسوا اليوم من كرمها فى كثير ولا قليل ، وإن زعماءنا تفرقت بهم السُبل بتفرق الغايات ، فِلكُلّ غاية دعوة ولكل دعوة سبيل » . وكل هذه تلتقى على أصل واحد ، وهو أن الحياة الاجتماعية لا تزال تحبو فى مدارجها ، وأن « لين العظام » يُخشى أن يطول علينا بقاؤه فى صدر الحياة حتى نقعد دون شبابها ، وأن الإصلاح لابد أن يتعجل حدوثه ... ولكن كيف يكون ذلك ؟! .

وقد ساق الدكتور طه حديثه عن المروءة ساخرًا من هذا الجيل الذى طبع على سفاسف الأخلاق ، وتحطمت عنده مكارم الإنسانية النبيلة ، وامتاز عظماؤه وصغاره باعتبار الأخلاق ضربًا من التجارة يلبِّسها الغشّ والخِلابُ والمواربة وتلقِّى التاجر للبائع بالدهان حتى يكون هو فى باطنه أظلم شىء ، وظاهره يتلألأ بمعانى الشرف والأمانة والنزاهة وإرادة الموافقة وتغليب منفعة المشترى على منفعته ، وغير ذلك من حيل التُّجار والسماسرة . فأراد أن يمزح ، فيدعو إلى اقتراحه إنشاء مدرسة للمروءة ليسخر من « تنازع الاختصاص » فى وزارتنا بل فى أعمالنا كلّها . وهذا كله فى مدرجه جيد لا يحاول أحد أن ينازع عليه أو يختلف فيه ، ولكن التهكم فى هذا الدهر المائج بصنوف العذاب والبلاء لا يكاد يجدى شيئًا فى الإصلاح . وهل يظن الدكتور طه أن كل هؤلاء الذين أقامتهم الأمة المسكينة على حياطة شؤونها ومرافقها وأسباب عيشها - لا يستشعرون من ذلك ما نستشعر ، ولا يجدون من معانيه مثل الذى نجد ؟ أجل ؛ ولكنهم كالذى يصف هو فيما سبقَ من الحديث ، فمن أين يأتى الشفاء إذا كان كلُّ الطبيب هو بعض المريض ! إن أعمال الإصلاح الكبرى لن تأتى من وزارة الشؤون الاجتماعية ، ولا وزارة المعارف ، ولا غيرهما إذا بقى الشعب ينظر إلى هذه كلها ليرى ما تعمل . والرأى لا يمكن أن يتجه فى هذا الأمر إلى تسديد وزارة المعارف ووزارة الشؤون الاجتماعية وتوقيفها على ما يجب عمله باقتراحات ومذكرات وبيانات ... إلى آخر هذه الجموع . إن عمل الإصلاح الآن موقوف على شىء واحد ، على ظهور

الرجل الذى ينبعث من زحام الشعب المسكين الفقير المظلوم يحمل فى رجولته السراجَ الوهّاج المشتعل من كل نواحيه ، الرجل المصبوب فى أجلاده من الثورة والعنف والإحساس بآلام الأمة كلها ، وآلام الأجيال الصارخة من وراء البنيان الحى المتحرك على هذه الأرض الذى يسمى فى اللغة « الإنسان » . وليس ظهور هذا الرجل بالأمر الهين ، ولا إعداده بالذى يترك حتى يكون ؛ بل هنا موضع للعمل وللإنشاء . وكبرُ ذلك مُلقًى على الأدباء والكتاب والشعراء ، وعلى كل إنسان يحترم إنسانيته ؛ فالأدباء ومن إليهم قد وقع عليهم التكليف أن يرموا بما يكتبون إلى إيقاظ كل نائمة من عواطف الإنسان ، وإلى إثارة كل كامنة من نار الهداية المحاربة التى لا تخمد ، ولا يكون ذلك شيئًا إلا بأن يعدّ كل أحد نفسه كالجندى عليه أبدًا أن تكون حماسته هى روح الحرب فيه ، فهو يمشى بها فى كل عمل ، ولو فى نقل البريد من مكان إلى مكان . إذن فأول الإصلاح الاجتماعى هو إدماج عواطف الفرد فى مصالح الجماعة على أَتم صورة من صور الحماسة أى القوة التى تنبعث من الدم لتطهير الدم ؛ وهذا بعض ما نتوافى عليه مع الدكتور هيكل إذ يقول فى مقاله الذى أشرنا إليه آنفًا « لم يفكر أحد فى مشكلاتنا الاجتماعية واضعًا نصب عينيه غاية قومية يريد أن يحققها ، بل ترانا إذا فكرنا فى الأمر كان الدافع لتفكيرنا فيه عواطف الشفقة أحيانًا ، والبر بالإنسان أحيانًا أخرى ، وهذه عواطف قد تحمد فى الأفراد ، لكنها لا قيمة لها فى حياة الجماعة ويوم فرض الله الزكاة فى الإسلام وقرن بها الصدقة لم يقم الشارع ذلك على أساس العاطفة الفردية ، بل أقامه على أساس النظام الاجتماعى » .

والكتابة هى زكاة العلم ، فيجب أن تقوم على هذا الأصل الفردى المتحمس المتدفق بتياره فى أعصاب النظام الاجتماعى ، فإذا اتخذها كتابنا على هذا وتكلموا بقلوبهم قبل ألسنتهم وأقلامهم كان ذلك قمينًا أن يبعث الرجل الذى سوف يضىء للحياة الاجتماعية سُدَف [١] الجهل والضعة والبغى والاستبداد .

* * *

---

(١) سُدَف : جمع سُدْفة ، وهى الظُّلمَة .

أبو العباس السفاح أمير المؤمنين [١]

أثار الأستاذ العبادى فى « الثقافة » عدد (٤٧) مشكلة ابتغَى حلها ، وذلك أنه وصف حِلية « أبى العباس أمير المؤمنين » أول خلفاء بنى العباس كما رواها المؤرخون من أنه كان « ذا شعرة جعدة ، طويلًا أبيض ، أقنى الأنف ، حسن الوجه واللحية » وكان « شابًّا متصوِّنًا عفيفًا حسن المعاشرة ، كريمًا معطاءً » إلى نهاية ذلك من كريمات الخصال . ثم استبعد أن يكون هذا الإنسان الرقيق أهلًا لتلك الصورة البشعة الطاغية التى تخلعها عليه معانى هذا الحرف « السفَّاح » من الجريمة وسفك الدَّمِ والرغبة فى ذلك والمبالغة فيه . واحتفل الأستاذ للحوادث التاريخية فلم يجد فيها ما يسوِّغ أن يكون « أبو العباس أمير المؤمنين » سفاحًا سفاكا للدماء ، وزاد أن ثقات المؤرخين كالطبرى والدينورى لم يذكروه إلا مجردًا من هذه الصفة ، ثم رجح بدليل بيانى جيد أن السفاح محمول هنا على الأصل اللغوى أى الكريم المعطاء الذى يتلف الأموال ولا يبخل بها. ولكن الأستاذ « أحمد أمين » رد عليه بعض أدلته فى العدد (٤٩) فردها الأستاذ العبادى عليه فى العدد (٥٠) وهكذا إلى العدد (٥٢) . وأنا قد أعجبت كل الإعجاب ببحث الأستاذ العبادى ، وإن كنت أخالفه كل المخالفة ، وذلك لأنه مبنى على منطق تاريخى جيد ، ولأنه أراد أن يفرق فرقًا جيدًا بين كتب التاريخ وكتب الأدب القديمة من حيث الحجة فى برهانات التاريخ . فإنا نجد كتبًا من أعظم كتب الأدب تحمل على الخلفاء من غث الأخلاق ما تناقضه سير هؤلاء الخلفاء كالذى يروون عن الرشيد – وهو بالمنزلة من الشرف والعلم والسياسة وطول الانبعاث للغزو والحجِّ – من معاقرة الخمر والملاهى والاطلاع على الحرم واستباحة الأعراض وغير ذلك مما لا يمكن أن يصح بوجه من الوجوه .

هذا ، وإنى أخالف الأستاذ العبادى ، فإنه حين رده الأستاذ « أحمد أمين » رجع عن تفسيره لفظ « السفاح » بالكرم والسخاء لغير علة ظاهرة وأصرّ على أن

---

(١) وتأتى بقية الكلام على أبى العباس السفاح ، ص : ٦٨

« أبا العباس أمير المؤمنين » لم يلقب « بالسفاح » البتة فى حياته ، ولا ذكر ذلك عنه أئمة المؤرخين ، وأصر مع ذلك أيضًا على أن صفات أبى العباس وحليته تنفى عنه أن يكون سفَّاكًا للدماء ؛ ولا كل هذا ! فإن هذه الصفات لم يُروَ لنا إلا أقلها حتى يمكن أن نجعلها أصلًا يستشف خلق أبى العباس من ورائها ، وإن الرقة والدعة والجمال ولين الخلق تخفى وراءها أحيانًا قسوة لا تدانيها قسوة ، كالذى يكون فى النساء ، فإنهن قد عرِفن بين الناس بالرقة « وهن أغلظ أكبادًا من الإبل » وإن المرأة إذا ثارت لم يبلغ مبلغها فى القسوة (أقْعد) الوحوش فى باب الوحشية ومع ذلك ... فهى الزهرة غِبُّ الندى ، وهى النسيم فى السَّحَر ، وهى ...

وكنت أحب أن أستوفى هنا القول فى تحقيق هذه الصفة لأبى العباس أمير المؤمنين ، ولكنى رأيت أن الكلام قد جاوز حده ، وأن الدليل يقتضينى إثباتَ كثير مما يُخِلّ تركه بالفائدة فموعدنا الكلمة التالية إن شاء الله .

* * *